الفطرة وأسباب الترقي في الكون (*)

كان الله ولا شيء معه المكان في ذاته منزها بألوهيته فليس بكم ولا كيف محتجبا في أزله منزها عن التحديد فليس بالجسم التعليمي الذي تحده الأبعاد ولا بالشيء المفروض الموهوم الذي تكيفه الأفكار تخيلا واقتراضاً وانما هو الكائن في ذاته لا تحيط به العقول ولا تصل اليه الحواس وكيف والحواس لا تدرك الا أعراضا لا تلبث أن تزول ، سبحانه لا يعلم شأنه الا هو

كان الله ولا شيء معه فلا سماء ولا أرض ولا طول ولا عرض ، كان مصدر الخير ومفاض النعمة كما قال الرسول (ص) عن ربه عز وجل « كنت كنزا مخفيا لا أعرف فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني » أراد الله أن يُعرف بنفسه ويمتاز بألوهيته التي يظهر فيها مظهر الكمال المطلق من قدرة غالبة وإرادة حكيمة وعلم واسع فأبدع من الخلق ماشاء وكوّن مملكة متأثرة بتلكم الصفات الثلاث : فالإرادة دبّرتها ، والقدرة أبرزتها ، والعلم حفظها من عبث الجهل الذي هو سبب الفساد في كل شيء

ثم فطر الله الكون على قواعد ونواميس كلية وأقام عليها هذا العالم الأكبر : عالم الحياة الحادثة والحركة المتجددة فأوجد مقوماتها قوى وكتلا مختلفة التركيب والعناصر . وقد اثبت العلم ان ما خلقه الباريء سبحانه وتعالى ينقسم الى قسمين : مادة ونفس فالمادة عبارة عن الاجسام والجسم عبارة عن كل كتلة أشغلت فراغا سواء أمكن النظر اليها أم لا كالهواء والماء فإنهما لا لون لهما فلا تدركهما الابصار

والنفس عبارة عن معانٍ مجردة لا تشغل فراغا ولا تتزاحم مع غيرها من انواعها ولا يزاحمها أيضا غيرها والدليل على ذلك قريب وهو انه يوجد في

(*) محاضرة للشيخ حسين سليمان مغلث مدارس العروة الوثقى بالاسكندرية القاها في نادي موظفي الحكومة بالاسكندرية بتاريخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٢٨

الانسان طريقان : طريق خاص بالاشياء الجسمانية هو الفم يوصل الغذاء الى قاعة جسمانية أيضا هي المعدة بحيث لا يمكن أن يشغل فراغها شاغل لا يصح ان لا يقف عند حد محدود في كميته وذلك كالغذاء النازل فيها فمتى امتلأت دفعت . وطريق نفساني مورده الحس المشترك وقاعة المحافظة تقبل من المعلومات ما لا يتناهى لا تضيق بعلم دون آخر بل هي قابلة لأن تتناول كل المعلومات التي تصل اليها مهما بلغ مبلغ كميتها

وقد قيل في النفس آراء كثيرة لا حاجة بها هنا . ومن المادة والنفس كانت التكوين فكانت هذه المجموعة وأودعت السلطة أرقى نفس فيها أفيض عليها من لدن البارئ جل وعلا صفة العلم فكان الانسان بها خليفة وملكا سخر له غيره من عالم المخلوقات

واقسمت المادة باعتبار ميزاتها الى ثلاثة اقسام : حيوان ونبات وجماد . وهي مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا يقتضي أن يكون وجود اثنانية في آن واحد إذ لا غنى للحيوان عن النبات ولا للنبات عن الحيوان والكل تقله الأرض وتعطيه من خواصها ما يحتاج اليه . ويظهر من ذلك ان الكائنات كلها لم توجد دفعة واحدة كما هو رأي الفلاسفة وانما وجدت بترتيب حيث كانت العوالم العلوية الفياضة ومنها صار التأثير في العالم السفلي ومن ذلك ربما يصدق قول بعض المنجمين الذين يرصدون الافلاك فيستنتجون من أشكالها حوادث جوية ووقائع أرضية (*

قد يظن انسان ان النبات ليس محتاجا الى الحيوان! كلا فان النبات محتاج في حياته الى الحيوان فانه يتنفس كالحيوان وبينهما في هذه الصفة ارتباط شديد فالحيوان يبقي الهواء للنبات والنبات يبقي الهواء للحيوان واليك الغابة دليلا وهي المكان الطبيعي الذي لا يخلو من وجودهما فهما يتبادلان منفعتهما . والغرض من هذا الارتباط العظيم بقاء ذلك الكون الى أجله المحدود تتوارد عليه عوامل الترقي كلما كشف العلم عن أسرارها وأبان البحث والتنقيب خفاياه (سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا)

*) لعل الكاتب يعني بالمنجمين غير علماء الفلك الذين يبنون اقوالهم على المشاهدات والقواعد الصحيحة فان هؤلاء بمعزل عن صدقهم اما المنجمون فلعلهم المعنيون قطعهم المغرقون الجاهلون الذين يهرفون بما لا يعرفون

أيها السادة : — الترقي في الكون لا يقتضي تغييرا ولا تبديلا في نواميسه (لا تبديل لخلق الله) والا لانقلبت الحقائق وذلك ضرب من المحال وانما ترقي الكون عبارة عن تحسين مادة اجتماع العناصر التي تتألف منها كتناسب الاوضاع وتوفيق الالوان واتحاد المشارب واقتراب ما تنافر منها بالمعالجة بالعلم والتربية . انظروا الى الانسان الاول واحتياجاته فكم علم حتى عمل حتى وصل الى ما هو عليه الآن من المدنية الباهرة والذي يكفل ذلك انما هو العلم الصحيح . هذا مبدأ صحيح وقاعدة يجب الاعتماد عليها والا ساءت المآل وقبح المآل فاذا يجب على المتعاونين والمتعاقدين قبل دخولها في التعاون والعقد الاتحاد والائتلاف وما أحرى الزوجين أن يكونا كذلك فمهما ان لم يأتلفا كانا مدرسة شقاء لابنائهما ومهبط فساد لذريتهما فتعارف الرجل وامرأته قبل الاقتران بها أمر ضروري طبيعي حتى يتم ذلك التقسيم الشرعي في قوله تعالى (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) فالخبيث يرى الخبث فضيلة في غيره والطيب لا يرى الفضيلة في غير الطيب والا وجب حل العقدة وفك الشركة وقد جاء في الحكم من العرب « ان لم يكن وفاق ففراق » فمهما تغيرت تلك المبادئ الطبيعية أو تنكرت فعلى مر الزمان يضطر الى الرجوع اليها هذا ما حدا بالاوربيين الآن الى ان يجعلوا عقدة الزواج بمجرد اختيار أحد الزوجين وقد بلغ التنافر ببعضهم الى حد مدهش هو مأروته بعض الصحف من طلاق امرأة زوجها لكون لون شعره لم يأتلف بصبغ أثاث منزلها الذي أنفقت فيه مبالغ طائلا وما أظلم تلك المرأة التي لم تربع أثاثها أولى من بيع بعلها ! بل ما اظلم الشريعة أو القانون الذي يقرها على صنعها ! . فعقدة الزواج عندنا ياحضرات الاخوان عقدة ذنب عقدت مصالح اسرية كثيرة يجب ان نضعها دائما على خارطة البحث والتفكير

والترقي في الكون له أسباب كثيرة وأول أساس فيه المال وما ورد في شريعتنا الغراء من مقال الزهد في المال والتحذير من فتنة الدنيا فانما الغرض منه البعد عن اكبر رذيلة تلصق بالانسانية الا وهي الحرص الذي هو عبارة عن حب المال لذاته وهذا اقبح مايكون في الانسان

ومن الترقي في الكون الاقتصاد في المادة للمحافظة على قوتها الباقية لان الاقتصاد هو التوسط فاذا أضعف الارض نبات ضروري كالقطن مثلا وجب أن يستنبت فيها عاما بعد عام حفظا لحياة الارض ويمكننا أن نقيس على هذا المثال الكبير غيره حتى نصل الى أقل الخلائق : النملة تدخر قوت شتائها من صيفها فمخالفة هذه القاعدة عصيان للترقي وجفاء للتقدم، والفلاح الذي يزرع الارض قطنا عامين متواليين طمعا في سعة الرزق جاهل غبي يختار كثيرا ينقطع عنه على قليل يدوم عليه وقد قالت العقلاء (قليل تدوم عليه خير من كثير تنقطع عنه)

ومن الترقي في الكون المدنية العلمية وذلك بايجاد الصناعات والصعود بها الى مدارج الترقي حتى تصل الى تسخير الجماد ليأخذ عن الحيوان ما يجهده كاستخدام البخار والكهرباء لاراحة الحيوان واتجاه قوى الانسان الجسمانية الى مساعدة القوى العقلية وهذا سبب صحيح لترقي العمل والصناعة فان الصانع المفكر لا يشك في أنه يأتي بصناعة متقنة لا يوفق لها الصانع المسخر وشتان بين من يعمل بواسطة عقله ومن يعمل بما اعتادت عليه يداه . اني لا أظن في هذا المكان اذا قلت أن في خبايا الكون الى الآن اسرارا تستخرجها العقول على مدى الايام . وقد ثبت العلم أن عقول أهل العلمية الحارة أذكى من عقول أهل الباردة فاحسب على الشرق ان استعمل عقله أن يأتي بما لم تستطعه الاوائل

ومن الترقي في الكون العمران . والانسان وان كان مكلفا بهذه الوظيفة السامية الا انه من العجيب أنه اذا اتسع به الفضاء ادركته الوحشة ومال الى الانس فانضم الى غيره من بني جنسه ليعاونه اولا على مصالحه وليأنس به ثانيا فاذا ضاق به المكان كره الزحام ومال الى الاثرة وحب النفس وتنازع البقاء مع أقرب الناس اليه وود لو كان هو كل الانسان فما أعجب هذا الانسان !. فهم يوجد في المزاحمة كبير فائدة من حيث العمران فقد قال الرسول (ص) « الرزق عند تزاحم الاقدام » الا إنه يلزم ان يكون الناس على نظام يكفل لكل حقه فيقف الاجشع عند حده ويساق العالة الى العمل متى قدر عليه وذلك بحرمانه من الصدقة والاعانة وقد ورد عن ابي مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية أنه مما أوصى به أولاده عند قرب منيته ان لا يعينوا

كلا ولا يعطوا عالة فيكون في جسم الامة اعضاء تألف الكسل في العمل وحتى لا يوجد دجال ولا ذو عراقة وشحاذ قادر على العمل

هذا القانون هو النظام الذي يسنه الله لعباده إما بطريق الوحي وإما بالهام حكماء الامة وعقلائهم وضعه لذلك . تجد عالم الوثنية قائما في بعض الجهات على قواعد وقوانين وضعها الرؤساء لاتخرج من النظام والترتيب في المعيشة بل قد تكون أشد في التكليف من الأوضاع الالهية وقد أكد لي خبير ان اليابان على ما هم عليه من الوثنية على كسب عال في الاخلاق ويؤيد ذلك بزوغ شمس الحكمة من الهند من قديم الزمان أي قبل أن يصل اليهم الاسلام وعلى أثر ذلك نقول ان فطرة كل مخلوق هي قيامه بالعمل لنفسه اولاً ولما خلق لاجله ثانيا فالمعادن مثلا أخذت قسطها من خواص الارض وظلت نافعة كان ذلك لفائدة غيرها وكذلك النبات ترى النخلة تبحث بجذورها على الماء فقد تركه على بعد مئة ذراع أو اكثر وذلك بجهد لو قام به حيوان لأنّ أين التعب الكادح وكثيرا ماشوهدت جذور النخلة تساقط من بين جدران الآبار الى الماء وبينها وبين تلك الآبار مسافة واسعة . كل ذلك الغرض منه حفظ حياتها لتؤدي وظيفتها التي خلقت لاجلها الا وهي تقديم الرطب الجني لبني الانسان وكذلك الحيوان يعمل أولا لقوام حياته ومنه مايبذل تلك الحياة الثمينة التي تعب في نموها ويتقدم بها الى غيرة ضحية ليتمتع بها ذلك الغير كدودة القز المطعومة التي تظل تعمل لتقدم لنا مادة من أنفس المواد لطافة وأغلاها قيمة ألا وهي الحرير . ومنه ما يتفضل علينا بما يخرجه من بطنه شرابا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس كما أخبر بذلك خالق النحل وموقتها الى هذا العمل الكبير الذي لايطابق بغيتها حيث قال (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)

أيها السادة — ما الذي ترونه في هذا الترتيب؟ هل في هذا الترتيب خرق؟ حاشا! هل في هذه الفطرة ظلم وشر؟ كلا! من أين يجيء الشر ومتى يكون المخلوق شريرا؟

انظروا الى الترتيب الآتي أيضا : تتكون المعادن من مادة الارض فتنقصها وكذلك النبات والحيوان ثم تعود تلك الاشياء اليها ولو باستحالة الصورة فتسد موضع النقص منها وهذا سر البقاء فلكون فاذا أراد الله اذهابه اختلفت هذه النسب فيحصل الفساد . ذلك ماجنح له كبار علماء التفسير في قوله تعالى (أولم يروا أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها والله يحكم لامعقب لحكمه) فاذا أراد الله القضاء على العالم انقص الارض والانقاص من الطرف مبدأ طبيعي عند ارادة إبادة الشيء وذهب قوم الى ان طرف الارض عبارة عن قطبيها ولكني أقول ان طرف الارض هو مجموع سطحها فكل قطعة فيه تسمى طرفا فكأن مجموع سطحها أطراف لها ولذلك عبر سبحانه وتعالى بلفظ الجمع فقال « ننقصها من أطرافها » ولو كان النقص من القطبين كما فهم بعضهم لعبر الله تعالى بلفظ المثنى أي من طرفيها كما هي سنة القرآن الكريم في الاخبار على أن الجزء الذي فيه الانقلاب والتغيير من الارض انما هو سطحها وهو الذي يقبل ان يعتريه النقص

جعل الله بقاء هذا الكون بتبادل الاشياء الثلاثة وغذاء بعضها من بعض فالارض تأكل نباتا وحيوانا والنبات يأكل ارضا وحيوانا والحيوان يأكل من الثلاثة وهذه الثلاثة تنقسم الى مراتب بحسب القوة والضعف بحيثيات مختلفة فمن حيث ان الحركة والقوة في العمل ظاهرة للحيوان كان هو أقواها وارقاها ومن حيث ان الارض هي أم الكل منها تخرج واليها تعود كان الجماد أقواها وأبقاها واذا بحثنا في الاشياء الثلاثة نجد في كل منها شيئا من الضرر في غير ذاته اي بالنسبة لغيره فقد يكون الجماد سما كالمعادن المحرقة الشديدة القبض وكذلك بعض النبات والحيوان . ومن الغريب ان الحيوان الغير الناطق خاصة يميز بها من النباتات السام من غيره فيجتنبه والطيب من الخبيث فيرعاه ولا يعقل ان تكون الاجسام السامة عديمة الجدوى بل قد تكون نافعة لكذا وضارة بكذا على ان العمدة في الطب القديم والحديث على الجواهر السامة ومن يصدق منا ان البقدونس وهو النبات الطيب المفيد للمعدة والمثانة يقتل البغاء بمجرد تعاطيه !

علم مما تقدم ان الكائنات الثلاثة متماسة وان منها ما لا يجد قوته الا بالافتراس وان الانسان على ترقيه العظيم ما هو الا حيوان مفترس الا ان ما أوتيه من الذكاء والتدبير جعل

طبيعة الافتراس فيه منتظمة: الانسان يصطاد الحيوان فان كان دينه يلزمه بتذكيته (ذبحه) ذكاه والا خنقه أو عبطه او وقذه وفي الذبح بالطريقة الشرعية تخفيف على الحيوان بشرط مراعاة أحكام الذبح الواردة . ولذا كان الذبح من أهم المقاصد الشرعية والديانة الموسوية لها فيه شروط مؤكدة ولا يعد الذبح تعذيبا للحيوان فانه يؤدي به وظيفة خلق لها قال تعالى (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) والطبيعة الغذائية في الحيوان كله تشهد بأن الانسان من الحيوانات أكالة اللحم ولو امتنع عن أكل اللحم أربعين يوما ضعف مزاجه جدا وربما يمرض مرضا شديدا لو استمر أكثر من ذلك اللهم الا اذا تعود الامر وحينئذ يصير أكل اللحم ضاراً له . الذبح عبارة عن قطع الوريدين وانما يقطعان في لحظة فلا يكاد يحس الحيوان لان الجسم حينئذ يكون انفصل عن المخ الذي هو مركز الاحساس

فهم ليس في ذبح الحيوان تعذيب . وانما التعذيب هو أن يعيش عاملا فوق طاقته أو يكون على خلاف طبعه وهي الحال التي تقضي على ذوي العقول بالانتحار تخلصا من شر الحياة . ورد عن الرسول (ص) « اتقوا الله في البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » وجاء عن بعض الفلاسفة أنه ترفع عن أكل اللحم مدة حياته كأبي العلاء المعري وقد فهم قوم ان الذي حمله على ذلك رأفة منه وشفقة على الحيوان هذا ان لم نعتقد أنه ناشيء من فاقة كان عليها ذلك الحكيم كما جاء في بعض رسائله ومثل هؤلاء من يضرب على نفسه بسور من حديد حتى لا تلزمه الحاجة الواسعة فيشقى في طلبها . على أن الامر ليس كذلك فحاشا ان يجهل المعري ومن نحا نحوه من الفلاسفة أسرار التكوين وانما الغرض من ذلك ان يكسر سورة نفسه فتتجرد من حجاب الجسم الكثيف الذي تزيده الشهوات واللذات ظلمة فتصفو صفاءها الذي ظهر في شعره الحكيم . وهذا هو السبب الحقيقي الذي فرض الشارع لاجله الصوم تقليلا لتلك الشهوات

اذا تقرر هذا المبدأ اقول ليس في الحيوان شر قط خصوصا ما كان منه اهلي اذ لا فكر توجد به امراض القلب كالحقد والحسد والغرور والانانية وغير ذلك من أمراض الانسان فكما ان العقل زينة له كان هو مصيبة عليه ذلك مذهب عامة

الفلاسفة يدلك على ذلك ترفع الاسد عن العودة الى فريسته مهما نهكه الجوع لكونه يأنس من نفسه قوة تهيئ له طعامه متى شاء

ربما ائتنس الانسان بوحوش الحيوان ورافق الثعبان فلا يرى منه الا المسالمة المطلقة ويأمن له أكثر من أخيه الانسان قال ابو العلاء المعري رحمه الله :

عوى الذئب فاستأنست للذئب اذ عوى وصوّت انسان فكدت اطير

وهذه الحكمة مبنية على ماتقدم من انه قد يوجد الانسان بين جماعات ادنياء من الناس فلا يأمن على حياته منهم ويفضل وجوده مع الوحش على وجوده مع هؤلاء الناس . وما كان خلقه من الحيوان الأذى والضرر كما تظن فانه لا يخرج أيضا بهذا الخلق عن كونه يؤدي وظيفة اضطرته اليها طبيعة فيه كالفأرة مثلا تترقب فرصة الليل الساذل خيمته على البلاد فتبيت تقرض طول ليلها فتفسد الاثاث والرياش ويعلم الله انها لا تعلم له قيمة ولا تتصور له لطافة وما ذلك الا لكونها خلقت حادة الاسنان ترتاح كثيرا لتشغيلها وكذا العقرب ليس بينه وبين غيره ثأر فيخرج ليأخذ به بذنبه ولكنه لكونه خلق أعمى تراه يخشى دائما في سيره فيتحصن بذنبه وهذا خلق فيه فلا لوم عليه

فان قلت اذا كان الامر كذلك فكيف اباحت الشريعة الرشيدة لنا قتل هذه الحيوانات ؟ قلت ان هناك مبدأ عمرانيا ضروريا هو اتلاف الحقير لحفظ العظيم ويقابله في ذلك قاعدة أصولية هي : إتلاف الثلث لاصلاح الثلثين جائز

فاذا كان من خلق الفأرة العبث بالاشياء الصالحة وجب قتلها حتى تحفظ تلك الاشياء من التلف كما اذا كان عضو من الاعضاء ضارا بالجسم وجب قطعه وعلى ذلك أباح الشارع أيضا الحكم بالاعدام على القاتل وهو ذلك العمل الذي هو عبارة عن إزهاق الروح ومصادرة البارئ جل وعلا في منحة عباده صفة الحياة فكيف يصح للشارع وهو الذي ينكر ذلك العمل الفظيع بالامس ان يأتي به اليوم وقد استفظعه من غيره ؟

يقال ذلك إذا كان الغرض من الاعدام الاخذ بثأر المقتول فقط ثم إنه لا فائدة تحصل للمقتول أو لاهله من قتل القاتل كلا انما الغرض من القصاص تأديب

من كان في نفسه مطمح الى هذا الجرم فيرى انه مقتول لا محالة والنفس عزيزة خصوصا اذا كانت الجرأة على القتل بعامل ليس له كبير تأثير فيها كالاختلاس مثلا أما اذا ضاق بها الامر وكرهت البقاء عليه كالذل والغيم والظلم وهناك المرض ورد الصائل فقابلت الصدور بالسهام ورأت اللذة في آلام الحمام

يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم اعراض لنا وعقول

وهذه حالة استثنائية عسى لا يؤاخذ القانون مرتكبها لان النفوس في ذلك فقد رشدها بخلاف القتل باسباب سافلة ولا يتأتى ذلك الامن الجبناء فكان القصاص لاحدهم أعظم رادع هذا هو معنى الحياة الذي استنتجه عقلاء التشريع من قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون) لولا هذا النظر ما استفاد أهل المقتول من القاتل شيئا أما أخذ الدية فهو أمر ثانوي قد يكون فيه سلوان لاولياء الدم متى كانوا فقراء وليست بمتيسرة في كل الاوقات . على ان المروءة والاباء يأبيان أخذ الدية خصوصا متى كان القتل حاصلا بسوء القصد وذلك يشفي صدر أهل القتيل بموت عدوهم وليس هذا بشيء ولا بمبدأ عمراني متى قصر النظر عليه فلو قابلنا كل شيء بشيء مثله في التلف لما مكثت الدنيا أكثر من مئة عام مثلا : عمرو هدم بيت زيد وزيد يهدم بيت عمرو وخالد مزق ثوب بكر وبكر يمزق ثوب خالد . . !

أما اذا كان القتل اتفاقا وهو ما يسمونه بالقضاء والقدر أو كان بمحض الخطإ فان الدية لا بأس بها متى تيسرت

ومن الترقي في الكون التمتع بحرية العدل واقامة قانون تدين اليه جميع الرؤوس يكفل التساوي بين الناس في حقوقهم . ذلك القانون كان في قديم الزمان عبارة عن أحكام اصطلاحية تتفق عليها الامة سواء أكانت حكيمة أي مطابقة للناموس العام كالشرائع السماوية والاحكام الديمقراطية أم موافقة لاجواء البلاد واجسام سكانها كالاحكام العرفية التي تختلف كثيرا باختلاف الاجيال واستعداد الاجسام يأتي في الامة جيل لا يردع الا بالسوط ، كما يأتي فيها جيل يؤدبه الصوت .

هنا توجد قاعدة ينبغي ان نذكرها لمناسبة ذكر العدل الا وهي قولهم (التساوي

في الظلم عدل) كيف يكون التساوي في الظلم عدلا وكيف يصح ان يكون الظلم مصدرا للعدل والعدل مصدرا للظلم مثلا ؟ نعم قد يضطر الانسان احيانا الى استعمال الظلم معتقدا انه ظلم اذا لابد منه ولكنه حينئذ لا يسمي ظلما وانما يسمى سياسة وهذه القاعدة واسعة الدائرة تشمل القيام على حقوق الانسان والدخول في شخصيته متى كان لا يحسنها وذلك كالحجر على السفهاء والقيام على اليتامى والوصايا على القاصرين ومصادرة السكارى والضرب على ايدي المقامرين ومنع الربا واحتسابه الى قدر معلوم وغير ذلك كما هو خاص بالاحوال الشخصية التي ربما يقال ان الاتفاق فيها يبررها نعم انه يوجد في قواعد التشريع أيضا قولهم لا مشاحة في الاصطلاح ولا حكم بعد الاتفاق . والملك يتصرف في ملكه كيف يشاء وبنيت على تلك القواعد احوال اهمها إباحة القتل للمتبارزين كما في قانون نابليون الا ان مثل تلك الاتفاقات قد تضر بالمجموع الكلي اذ انه مركب من الافراد فساغ إذا للحكومة القائمة عليه المسئولة عنه ان تضرب على ما يتطرق اليه من الفساد ولو أدى ذلك الى مصادرة الافراد

بقي لنا في هذا المركز نقطة يجب أن نعرض لها لا لاوافيكم علما بها حاشا فانكم عالمون متمدنون اعلم مني بها وانما أرجو ان تنشروها فيعرفها الجاهل الاوهي كلمة الحرية التي كثير من جهالنا ينطقون بها ولا يفهمون معناها الحقيقي نعم كثير من الناس من يجهل معنى هذه الكلمة بل بعضهم يفهم منها عكسها عكسا مضطردا ويرى ان الحرية في إطلاقه بغي في الارض بسكر وعربدة وتهتك وابتذال وان الرجل والمرأة في ذلك سواء . فتخرج متبرجة على مايخالف جميع أجناس النساء الكاملات تحجب وجهها وتكشف نهدها وثديها وأسرها وتكشف عن ساقيها واذا كسيت نهدها بالقفازين (الجوانتي) اظهرت جيبها وبعض الرجال معايب وربما ساويت هذه المعايب المتقدمة مما يدل على الانسان المصري في هذه البلاد محكوم اطال الله امكنه أن يمشي برأسه لا تقلب يمشي عليه حما في العكس المضطرد: ماهذه الحرية أيها السادة!؟ — ان الحرية كما لا يخفى عليكم عبارة عن التساوي الممكن بين أفراد الناس وهو المبدأ الذي يجب المحافظة عليه ومحب الحرية أول من يحترم حقوق الغير محافظة

على حقوقه هو ايضا وهو أول من يقول بالآداب وتربية النفس لتتمثل الناس باحاسن العادات ومكارم الاخلاق فتتمتع بمواهبها وتطلق عنان فكرها في ميادين حريتها بما لا يخرج عما وضعه قانون عمرانها وأقره عقلاء امتها

الانسان — ايها السادة — مطلق مقيد وليس هذا بعجيب بل هذا من لوازمه وليس ذلك حاطا من كرامته ولولا ذلك لاشبه الحيوان لانه لو كان مطلقا فقط لاشبه سوام الماشية وهمل الحيوان كالكلاب والقطط ولو كان مقيدا فقط لاشبه اذلاء الحيوان كالحمار والبغل والجمل فجهة اطلاقه هي جهة حريته يتصرف فيها كيف يشاء لا يسأل عما يملك ولا عما وهب بشرط أن لا يخرج ذلك عما قدمناه . وجهة تقييده هي جهة قيامه بواجباته كادائه لامه وابيه وزوجه وبنيه وفضيلته التي تزويه وملازمته عادات قومه الضرورية التي قد يخل النظام بتركها كتركه لغته باستعمال غيرها واحتقاره مصنوعات بلاده وغير ذلك مما نراه سببا في انحطاط كثير من الامم وادائه أيضا بلغته وملته حتى يعمل هو ايضا لغيره كما قدمناه في تقسيمه الحيوان والنبات

ايها السادة — اني اذكر لكم نتيجة استنتجتها مما كتبه العلامة ابن خلدون في هذا المقام تحت عنوان (المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض وان الربع الشمالي منها اكثر عمرانا من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك) اقاض الحديث هذا العالم الجليل وبعد ان عرف الارض وخططها وذكر منها خطوط الطول والعرض ومدار الكواكب واختلاف مسقط اشعة الشمس باعتبار الزوايا الثلاث برهن على أن الجزء الشمالي منها كثير العمران وذلك بسبب توفر الرطوبة فيه حيث قال

« وافراط الحر يفضل في الهواء تجفيفا وييبسا يمنع من التكوين لانه اذا أفرط المر جفت المياه والرطوبة وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات إذ التكوين لا يكون الا بالرطوبة » ولا بأس هنا بذكر جملة فلكية عن هذا الاستاذ اتماما للموضوع قال « اذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض خمسة وعشرين فما بعده — اي بعد هذا العدد — نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر الى الاعتدال

او يميل عنه قليلا فيكون التكوين ويتزايد على التدريج الى ان يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الاشعة مفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الا ان فساد التكوين من جهة شدة الحر اعظم منه من جهة شدة البرد لان الحر أسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في الجمد فلذلك كان العمران في الاقليم الاول والثاني قليلا وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثيرا بنقصان الحر وان كيفية البرد لاتؤثر عن أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر اذ لا تجفيف فيها الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالي اكثر وأوفر والله أعلم » اه

هذا الربع هو عبارة عن قارة أوربا وهي حقيقة أعظم القارات عمرانا ونتيجتي من موضوع هذا العمران الكبير هي ان الحضارة والعمران الغربي انما هو نتيجة طبيعة القارة لا أن للاوربيين عقولا استثنائية تتفاوت عن غيرها كما يفهم بعض المفتونين بالغرب . واذا كنا نحن أيها السادة لانجد من طبيعة جونا معينا كهؤلاء افلا يجمل بنا ان نفاض ذلك من أنفسنا قوة وشجاعة حتى تساوي مع اولئك الاوربيين ولعل ذلك سر ذكاء اهل البلاد الحارة فان الله الحكيم العليم يبعث بالمعونة على قدر المؤونة فاعطانا ما أنقصه منا من خاصة ارضنا ذكاء وجلدا حمدا لو قدرناه واستعملناه!

ومن أسباب الترقي في الكون المطاوعة لمقاديره والتصرف في حوادثه وذلك مايعبر عن ضده بالجمود قال افلاطون : لاتكرهوا اولادكم على اخلاقكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم ، وهذا أمر ضروري ان لم يكن طوعا فليكن كرها ولشر بعثنا فيه نظر حكمة ورشاد قال الله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) يعني اذا نسخ الله حكما أتى لنا باحسن منه أو بمثله في زمان أو حال يناسبه حيث كان لاتناسبه حاله الاولى وليس ذلك بكبير على الله لانه ليس الغرض منه ان الله تعالى يجهل مواقعة الاحكام لاوقاتها حاشا فهذا شيء مستحيل عقلا انما الغرض من ذلك وضع مبدإ للمكلفين يتصرفون فيه بحسب ضروراتهم والنسخ بالبداهة لايأتي الا في المعاملات المبنية على الاوامر والنواهي وليس بمعقول ان ينسخ توحيد بغيره ولا ان تبدل صلاة بصلاة بل قد يتبدل الحكم بغيره للتخفيف أو التشديد كنسخ

الوصية للاقارب بالميراث وعدة الوفاة من الحول الى اربعة أشهر وعشر ذلك كما قال العلامة الخطيب الشربيني لان الاحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلا من الله ورحمة وذلك يختلف باختلاف الاعصار والاشخاص كأسباب المعاش فان النافع في عصر قد يضر في غيره . اه وكان لسيدنا عمر رضي الله عنه في ذلك أحكام خاصة منها ايقاع الطلاق ثلاثا دفعة واحدة واقامة صلاة التراويح في عشاء رمضان واحكام استثنائية كثيرة في معاملة أهل الذمة لانخرج عن كونها سياسية اكثر منها شرعية

ومن الترقي في الكون ايجاد قوة الجماعة كاشتراك الافراد في الاعمال واهمها عقد الشركات ومن يكن في ريب من ذلك فليسأل عنها الجالية الاوربية النازلة بنا حيث انا لم نوفق لها حتى الآن نسأل الله حسن التوفيق

هذا أيها السادة ما حضرني من اسباب الترقي الضرورية . وهناك اسباب كمالية لانخرج عن تحسين ذلك النظام البديع منها الجمعيات والمتديات والمتنزهات وهي وان كانت كمالية الا انها لابد منها لكل أمة بغية الوصول الى الكمال والله الهادي الى سواء السبيل

آثار علمية

اسماء عربية لمسميات افرنجية

عني اعضاء نادي دار العلوم بمصر بالتنقيب عن اسماء عربية لبعض المسميات الافرنجية وما لم يجدوا له اسما عربيا وضعوا له اسماً جديداً او عربوه والاشتقاق والتعريب ليسا جديدين في اللغة بل هما جائزان وواجب ان يصار اليهما عند الحاجة . ونحن ننقل للقراء ماوقع عليه الاختيار في الاجتماع الاول لأعضاء النادي وسنثبت كل مايختارونه على ان كثيرا من هذه الكلمات قد استعملت من قبل واقر الاعضاء على استعمالها اقرارا وهذه هي الكلمات :

(استمارة) يرى اعضاء النادي استعمال (استمارة) وقد وجدت هذه الكلمة في الكتب القديمة بلفظ استيمار بالتسهيل وحذف التاء ولكنهم رأوا إثبات التاء